

عوامل الانحراف في توحيد العبادة



د. عبد اللَّه الهذيل

عوامل الانحراف في توحيد العبادة

إن أشد ما يكون الانحراف حين يتعلق بأصل من أصول الدين، والتوحيد هو أصل الأصول في دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فالانحراف فيه انحراف في أساس ما دعوا إليه وبينوه.

وما من خفاء ولا التباس في دعوة الرسل لهذا الأصل، وخاصة دعوة نبينا ﷺ، فقد بين هذا الأمر غاية البيان، وأقام الحجج الظاهرة على كل منحرف فيه، فلم يبق لمضل ما يتشبث به إلا ما يرتضيه لنفسه من سراب يلهث وراءه، يحسبه عذباً زلالاً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فالتمسك بمعالم الرسالة صمام أمان - بإذن الله تعالى - عن أي انحراف وضلالة.

والبعد عن تلك المعالم، وغياب مفاهيمها عن القلب والعقل هو سبب رئيس في وقوع الانحراف مطلقا، وفي التوحيد على وجه الخصوص ؛ إذ أن الانحراف فيه غايةٌ مقصودةٌ للشيطان وجنوده في إضلال بني آدم.

وثمة عوامل كثيرة داعية إلى الانحراف في هذا الباب ما كان لها أن تكون لولا ذلك البعد عن سنة النبي ﷺ ومعالم رسالته.

ولعل من أبرز تلك العوامل ما يلي :

أولا : الجهل :

وهذا عامل أساس في جملة الانحرافات الواقعة في الناس.

فالجهل بمسائل التوحيد والأسباب والوسائل الآخذة إلى مضادته أو نقصانه من أهم العوامل الداعية إلى وقوع الانحرافات المتنوعة فيه، بل تراه يأخذ صاحبه إلى المسارعة في ذلك الانحراف خوف الفوات حين رآه أحسن العمل.

وهذا من أعظم الضلال ؛ إذ يرى فيه المرءُ حسناً ما ليس بالحسن، وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وهذا الجهل هو الذي جعل أصحاب موسى بعد إذ نجاهم الله تعالى يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما للمشركين آلهة.

وقد ذكر الله تعالى ذلك عنهم حيث قال : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فالجهل سبب لكثير من مصائب الناس في دينهم، يسرعون به إلى أنواع من الضلالة.

وما وجد الشيطان طريقا إلى قلوب العباد بمثل ذلك الجهل الذي وجده أبوابا مشرعة إليها، لا يتحصن منه شيء فيها .

ثانيا: الخلل في مصادر التلقي:

وهذا أيضا من أهم عوامل الانحراف عن التوحيد.

ذلك حين يكون صدور المرء عن غير كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه ﷺ، فإنه لن يخرج إلا بالآراء الفاسدة، والأهواء المضلة.

وإن الأمان من الضلالة - بإذن الله تعالى - هو في التمسك الحق بالمصادر المتينة التي لا يعتريها نقص ولا نسيان، وهي كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

قال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وقال النبي ﷺ : **(وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله)**(١).

ولما ظهر في الأُمة طوائف ارتضت لأنفسها مصادر في التلقي قدمتها على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ظهر الافتراق في الأُمة، وتنوعت سبل البدعة فيها واتسعت، فكل يوم تقذف العقول العارية من الحصن دون الضلالة بأنواع من الآراء والأهواء.

وحين نتأمل الانحراف الواقع في توحيد العبادة فإن هذا العامل ظاهر التأثير في ذلك، حين صارت تقرر تلك الانحرافات بالعبارات المزخرفة، والجمل المتكلفة من محض الآراء والاجتهادات، والإعراض عن الدلائل الصريحة التي لا غموض فيها من الكتاب والسنة.

---

(١) رواه مسلم في الحج - باب حجة النبي ﷺ - رقم ١٢١٨، وأبو داود في الحج - باب صفة حجة النبي ﷺ - رقم ١٩٠٥، والترمذي في المناقب - باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ - رقم ٣٧٨٦.

ثالثا: التقليد الأعمى:

وهذا الداء العضال سبب رئيس في ظهور الانحراف وتوسعه.

وهو مرض جاهلي قد أخبر الله تعالى به عن أهل الجاهلية فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

فتقليد الآباء والشيوخ من غير هدى وبصيرة يصبغ الانحراف الذي كانوا عليه في المقلد، ويزيده التعصب المقيت شدة وصلابة، ويُعمي عنه دلائل الحق، ودعوات الحق.

ومن تأمل كثيرا من المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة يجدها موروثات تتعاقبها الأجيال دون تمحيص ولا عرض على الميزان الحق، فما يزيدها ذلك مع مرور الأيام وتتابع ذلك التعاقب إلا زيادة في الانحراف، وبعدا في الغواية.

ومتى ما تخلص المرء من ذلك التقليد الأعمى، وصار يزن الموروثات بميزان الشرع، وجعله حاكما عليها، فإنه يسلم له توحيده، وأمور دينه جميعها.

رابعا: الاغترار بكثرة المخالفين:

ليس العبرة في تقرير المسائل الشرعية هو الكثرة أو القلة، وإنما هو موافقة الدليل الذي أنزله الله تعالى على رسوله.

فمتى ما وافق المرء ما دل عليه الدليل فهو على الحق، ولا يضره عند ذلك قلة السالكين، وكثرة المخالفين.

ولما صارت الكثرة في نظر كثير من الناس هي المحكم في الضلالة والهدى، والخطأ والصواب، صارت هي الفارق عندهم بين الأمرين، وصاروا يركنون في تأييد ما هم عليه من مخالفات بالكثرة التي هم عليها.

وكلما جاءهم البيان، وصدع لهم بالحق من أشفق على حالهم، ما كان حُجتهم إلا رمي الأبصار إلى ما يملأ الأرض ممن هم على شاكلتهم، فيرونه الدليل الظاهر والحُجة القاهرة على صحة الطريق وسلامة المنهج.

نعم، لا يُنكَر ما للكثرة من أثر على تأييد الحق وتثبيته، ولكن ليست هي المحكمة في ذلك على كل حال، فإن وافقت الحق الذي هو قائم بالدليل فهو اجتماع لأسباب التأييد والتثبيت.

وإن كانت مخالفة فلا اعتبار بها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

خامسا: ضعف الإيمان واليقين والتوكل على الله تعالى:

وهذا يورث القلب التفاتا إلى غير الله تعالى، فيتشبث المرء بالأسباب الوهمية، ويستمسك بعرى واهية رجاء تحقق مطلوب أو دفع المكروب.

فيطرق في طلب ما تصبو إليه نفسه أو دفع ما عالجته نفسه سنين طوال من بلاء ونصب أبوابا ليست في السماء، فيبث الشكوى وينزل

المسألة عند مخلوق مثله لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

فاستبدل بالتوكل على الله تعالى الركونَ إلى ما أنزله عند ذلك المخلوق، واستبدل باليقين بوعد ربه تعالى ما أخلد إليه من ظنٍّ عدم الخيبة عند من بث إليه شكواه.

وبذلك صار القلب معلقاً بذلك المخلوق، كلما نزلت به نازلة، أو ضاقت به شدة لهث باسمه طالبا المدد وحسن العطاء.

وما تلك إلا سيرة الجاهلية الأولى بل أشد.

أما من تعلق قلبه بربه تبارك وتعالى، وصدق يقينه به، وكمل توكله عليه فإنه صفي القلب من دخائل الشرك، فلا يسأل إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يستعين إلا بالله. ؛ فهو سبحانه أحق من عبد، وأحق من ذُكر، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطى، وأنصر من ابتُغي، وأرأف من ملك، عز جاهه وجل ثناؤه.

سادسا: تأثير البيئة المنحرفة التي يعيش المرء بينها:

إن من أسباب ظهور الانحراف في توحيد العبادة وتَوَسُّعُه البيئةَ المنحرفة نفسها، والعيش في وسطها.

فلا يكاد المرء يتخلص من تأثير تلك البيئة إلا ما شاء الله تعالى.

فالإبقاء على الانخراط في أوساط المخالفين دون أن يكون هناك تحركٌ للإصلاح والتغيير يؤثر على النفس، ويورثها تشبها بأحوالهم، أو السكوت عليها في أمثل الأحوال.

سابعا: التأثر بالوارد من العلوم والأفكار المنحرفة كالفلسفة وعلم الكلام:

وهذا من أضر الأمور على الأُمة، حيث صار مدخلا لكثير من المبطلين الذين أرادوا النيل من سلامة مناهجها، وصفاء مصادرها.

فأغروا ضعاف النفوس بالحاجة في تقرير مسائل الشرع إلى الموروثات الفكرية التي تركها الإغريقيون واليونانيون وغيرهم.

فصارت أهم مسائل الشرع وهي المتعلقة بالإيمان والتوحيد توزن بميزان تلك الأصول الموروثة من تلك الحضارات البائدة.

حتى أضحى الكلام في ذلك لا يحمل روح حياة، ولا نور هدى، ولا ثماراً يغتذي القلب طيبها وحلوها.

وصارت مسائل التوحيد جدلاً عقيماً، وشبهات تحرق القلوب، فلا يرى القلب راحته إلا بالبعد عنها.

وبذلك صارت العبادة لا تحمل معنى الثبات الراسي في القلوب، فسرعان ما تدب إليها طرائق الجاهلية، فتأخذها إلى أن يصرف شيء منها للمخلوق، دون أن يحدث منها لذلك نكارة.

ثامنا: التعرض للشبهات دون التحصن وابتغاءِ الرد عليها:

وهذا من أضر الأمور على توحيد العبادة، حين يكون المرء مصغي السمع وماد البصر إلى الشبهات المتعلقة في هذا الباب، دون أن يكون منه تحصن بالعلم ضدها، ودون إرادة الرد والبيان لبطلان تلك الشبهات ومخالفتها للحق.

فترى من هذه حاله سرعان ما يستسلم لتلك الشبهات، ويرى أن الأمر دون ما كان يتصوره بمراحل كثيرة، حتى يُزين في قلبه صحة كثير

من الأقوال والأفعال الشركية، وإن لم يكن قد خاض في شيء منها، فإن هذا في حده يعتبر انحرافا خطيرا، إذا غلب فإنه تُقر به تلك الانحرافات، وقد تنساق النفس إليها شيئا فشيئا.

فليس التعرض للشبهات ممدوحا لذاته، وإنما يمدح ويحمد إذا كان سبيلا لتعريتها، وبيان وجهها الحقيقي الذي لا تشتبه به ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

تاسعا : ضعف تبيين التوحيد، وضعف الرد على المخالفين :

إن من أعظم أسباب الانحراف في هذا الباب حين يضعف في الناس بيانه والدعوة إليه، ويكون أهل البدع يخوضون في بدعهم تقريرا وتصنيفا دون أن يتصدى لهم من يرد باطلهم، ويعري شبهاتهم.

وإن المتأمل لتاريخ الأُمة يرى هذا الأمر ظاهرا لا يخفى منه شيء.

ففي الأزمان التي يغلب فيها الضعف على الأُمة، وتكثر البدعة والخرافة دون رادع فإن تلك البدع تسرع في الأمة سرعة النار في الهشيم، تتجاوز حدود الأرض والجنس واللون.

أما في الأزمنة التي يهيئ الله تعالى للأُمة من يظهر دلائل التوحيد، ويرد على أهل البدع، فإن أثر ذلك يظهر في الأُمة، فتخمد البدعة، وتكون السنة محل ظهور وانتشار.

نسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعلنا أسبابا في نشر التوحيد ورد كل ما ينقضه أو ينقصه .